مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473 المجلد السادس العدد 11 (2021) * ص113-134

متغيرات التعليم والبنية الثقافية العامة للمجتمعات

دراسة تحليلية لدور آلية التربية في التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي.

Education variables and the general cultural structure of societies

An analytical study of the role of the education mechanism in social change for Malik bin Nabi.

د. عزيز كعواش •

جامعة محمد خيضر بسكرة، aziz.kaouache@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام: 2020/02/08 تاريخ القبول: 2021/01/11 تاريخ النشر: 2021/12/31

الملخص:

تميزت نظرية مالك بن نبي في التجديد باستخدامه الفرد كوحدة تحليلية لتفهم البناء الحضاري الاجتماعي. كما استخدم مفاهيم التحليل النفسي والتحليل التاريخي للظواهر الاجتماعية بصفتها أدوات معرفية يستعين بها من أجل البحث عن الانتظام الذي يحكم هذه الظواهر الاجتماعية والتاريخية. وقد توصلت الدراسة إلى جدة البرنامج التربوي الثقافي الذي حدده ابن نبي والذي أكسبه ميزته كنظرية في الإنشاء السلوكي، كما أظهر مالك بن نبي في معالجته لموضوع الثقافة رأيا هاما في خصوص التعليم، فمعطيات التعليم عنده هي متغيرات تابعة للثقافة وليست مستقلة، فالثقافة هي التي تكون المواقف والسلوكيات أكثر مما يفعله التعليم، وهذا ينبهنا إلى أوهام الدراسات التربوية الاجتماعية التي تعول على التعليم وإمكاناته في إحداث التغيير والتنمية والإصلاح دون التفكير ابتداء بإصلاح البنية الثقافية العامة للمجتمع وهدم الأطر الهيكلية السائدة.

الكلمات المفتاحية: تغيير، تجديد، بناء، تربية، تعليم، مجتمع.

Abstract :

Malik bin Nabi's theory of innovation was characterized by his use of the individual as an analytical unit for understanding social and civilizational construction. He also used the concepts of psychoanalysis and historical analysis of social phenomena as cognitive tools that are used in order to search for the regularity that governs these social and historical phenomena. The study reached Jeddah the educational educational program that Ibn Nabi identified and which earned him his advantage as a theory of behavioral construction. Malik bin Nabi also showed in his treatment of the issue of culture an important opinion in the matter of education, because the data of education has variables that are dependent on culture and are not independent. Change, development and reform without thinking, starting with reforming the general cultural structure of society and demolishing the prevailing structural frameworks.

Keywords: *: change, renewal, building, education, society.*

• **المؤلف المرسل:** عزيز كعواش، **الإيميل:** aziz.kaouache @univ-biskra.dz

- **مقدمة**

يعد مفهوم التربية عملية إسقاط تثقيفية ترمي إلى خلق واقع اجتماعي لم يوجد بعد، واقع متحضّر يمدّ أفراده بجميع الضمانات المادية والمعنوية التي يحتاجون إليها لنموهم في مختلف مراحلهم العمرية وللتعبير عن ذواتهم وقدراتهم. وبالتالي فإن حديثنا هنا عن هدف التربية عند مالك بن نبي هو حديث عن واقع اجتماعي لم يوجد بعد، يكون بديلا لهذا الواقع، على أن لا يتمّ إلغاء هذا الواقع، وإنما يكون محلّ معاينة نستمدّ من خلالها الرؤية الصحيحة لما يجب أن تكون عليه الأمور. ذلك أن الحديث عن شيء غير موجود -كما يقول مالك بن نبي- هو في حدّ ذاته محاولة لخلقه وإسهام في تكوينه.

وبما أن التغيير الاجتماعي ليس معطى جاهزا، بل هو بناء داخلي تاريخي متدرّج ومتواصل، يبدأ من نقطة معيّنة هي نقطة الإقلاع الحضاري، وهذه النقطة التي تبدأ منها عملية التغيير الاجتماعي ليست إلاّ هذا الواقع الماثل بكلّ ما يحمل من رواسب وسلبيات، فإن التربية عند مالك بن نبي تكون في أولى مهامها التثقيفية مرتبطة بالمرحلة التاريخية التي يمرّ بها المجتمع، وبظروفه النفسية والاجتماعية، وموجّهة صوب هذا الواقع الشاخص لتحدث فيه عملية التغيير الاجتماعي المطلوب.

فالتربية عند مالك بن نبي حين حدّدت غايتها المتمثّلة في خلق واقع اجتماعي وثقافي غير موجود، فإنها لم تبتعد عن الواقع المختلف المعيش، لتنظر من برج عاجي إلى المستقبل، بل انطلقت من هذا الواقع الذي يجسّد مرحلة مجتمع ما بعد الحضارة (مجتمع ما بعد الموحدين)، ومن وضعية الإنسان فيه: إنسان ما بعد الحضارة (إنسان ما بعد الموحدين) وحالته النفسية- الاجتماعية، وحاولت على ضوء هذا الواقع أن تشخّص مرضه لا أعراضه، مستعملة في سبيل تغيير إمكانيات المجتمع المادية والمعنوية، ومركزة على قيمة الإنسان المتغيّرة.

غير أن الهدف العام للتربية عند مالك بن نبي والمتمثّل في تحقيق التغيير الجذري في المجتمع الإسلامي، لن يتحقّق إلاّ باستعادة المجتمع لمبررات وجوده الأصلية المؤسسة على قيم الروح، هذه المبررات التي أدخلته التاريخ أوّل مرّة وصاغت مرجعيته الثقافية آنذاك. فالتربية عند ابن نبي تمثّل عملية إسقاط تثقيفية مرتبطة بالواقع ومعطياته، وتنطلق منه بهدف تشكيل الإطار الثقافي الملائم،

مجلة التغير الاجتماعي * ISSN 2507-7473 * المجلد السادس العدد 11 (2021) * ص113-134

الذي يصل أفراد المجتمع بالمستقبل وبشروط الحياة الكريمة فيه، والمتمثلة في تلك الضمانات الضرورية المادية والمعنوية، التي يوفرها المجتمع - باعتباره مجتمعا متحضرا- لجميع أفراده وفي جميع أطوار حياتهم، والتي تمكنهم من تحقيق ذواتهم وتأكيد هويتهم الحضارية، ومن ممارسة قدراتهم الإبداعية المختلفة ضمن ذلك الشكل الراقي من أشكال الحياة البشرية المتمثل في الحضارة.

بيد أن هدف التربية عند مالك بن نبي لا يتوقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى الحديث عن الآليات التربوية التي تحفظ هذا التغيير من التراجع والمجتمع من النكوص. لهذا كان الهدف أيضا هو التركيز على التجديد المستمر للحوافز والمبررات للإبقاء على منجزات التغيير الاجتماعي الحضاري، ذلك أن استمرار الحضارة يدل عليه وجود حركة دائبة تخضع في عملها لقانون فيزيائي قوامه «الحركة هي التي تؤدي إلى أسبابها». وبهذا يفقد قانون الدورة – الذي رأيناه سابقا- حتميته في وجود مبررات البقاء والاستمرار والحركة في المجتمع.

وفي سياق ما تعرضه هذه الأطروحات من استراتيجيات، فإن دراستنا تهدف إلى تفكيك عنصر التعليم بمفهومه الخاص ومتغيراته المختلفة وآلياته المتعددة ودوره في تشييد البنية الثقافية العامة للمجتمعات الإسلامية خاصة عند مالك بن نبي. وتعد هذه الفلسفة من أبرز المحاولات في التجديد والتغيير الاجتماعي في العالم المعاصر، حيث تأتي في طليعة المشاريع التي قامت بدراسة الواقع المتخلف الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية منذ خرجت من دائرة الحضارة. هي دراسة تسعى لفهم أسباب تراجع مجتمعاتنا من خلال السياق التاريخي، وعرض الحلول للمشكلات التي تعاني منها معظم المجتمعات الإسلامية برؤية تأخذ في اعتبارها عمومية الظاهرة، وتراعي خصوصية المجتمع الإسلامي، وأبرز هذه الحلول توظيف آلية التربية بمفهومها التجديدي الواسع كما فهمها ابن نبي. فالتغيير عنده ينطلق من الحقيقة التربوية. إننا نطمح من خلال إشكالية هذا البحث إلى **كشف دور آلية التربية كمتغير أساس في عملية تجديد البنية الثقافية العامة للمجتمع الإسلامي وذلك من خلال أطروحات ومقاربات مالك بن نبي.**

1.مركزية البعد التربوي لعملية التجديد والبناء الاجتماعي في مشروع مالك بن نبي الحضاري

يعد الإنسان المحور الأساسي في عملية التغيير الاجتماعي وإعادة البناء، لأنه – كما يقول مالك بن نبي- هو الذي يحدد في النهاية القيمة الاجتماعية لمعادلة الحضارة (إنسان + تراب + وقت

= حضارة) « لأن التراب والوقت لا يقومان – إذا اقْتُصِرَ- عليهما فحسب- بأي تحويل اجتماعي» (مالك، فكرة كمنولث إسلامي 2000، صفحة 75)، ومن هنا يبرز البعد التربوي لعملية التجديد الاجتماعي عند ابن نبي.

لذلك فإن الحديث عن التغيير الاجتماعي عند ابن نبي يقودنا حتما إلى الحديث عن التربية، إذ التغيير يشترك مع التربية عنده في موضوع الدراسة. ذلك أن ابن نبي اتخذ من الإنسان مادته الأساسية التي تتجه إليها كل مجهوداته في التغيير باعتباره محور العملية التجديدية، وهو في الوقت نفسه الأصل الذي يقوم عليه موضوع التربية، وبالإضافة إلى اشتراك التغيير والتربية في الموضوع، فإنهما يشتركان أيضا في الهدف، والذي يتجلى في تربية الإنسان وتحقيق التغيير، أي تربية الإنسان بما يحقق التغيير. (باي، 2006، الصفحات 146-147)

وإذا كان كل من التغيير والتربية عمليتان مقصودتان، إذ يتعلق الأمر بذلك الاختيار الإرادي الذي يتقرر في أعماق النفوس، فإنه «أينما وجد التغيير وجدت التربية، وأينما وجدت التربية وجد التغيير، فالعلاقة التي تجمعهما إذن هي علاقة تلازمية تكاملية». (باي، 2006، صفحة 147)

ومع ذلك فإنه من الوجهة الإبستيمولوجية، لا يمكن اعتبار التربية هي التغيير، ولا التغيير هو التربية، بالرغم من التداخل الموجود بينهما في الموضوع والهدف. ولو تناولنا القضية بشيء من الدقة، نجد أن هذا الأثر المنتظر الذي هو التغيير، يكون نتيجة ذالك الفعل الخارجي المقصود الممارس على التربية. (باي، 2006، صفحة 148) ذلك أن « التربية هي المصنع الاجتماعي الأساس لبناء الإنسان وتأهيله للحياة، ومنحه الشروط الموضوعية المتكاملة للتحضر- والتأثير الحضاري في بيئته وعصره على اعتبار أن الفعل الحضاري هو باستمرار محصلة فعل ثقافي، وأن الفعل الثقافي هو باستمرار محصلة فعل تربوي، وأن الفعل التربوي هو باستمرار محصلة فعل منهجي». (برغوث، 2004، صفحة 193) وبناء على ذلك يمكن القول بأن التربية تتخذ من التغيير موضوعا وهدفا لها، ويتخذ التغيير من التربية وسيلة له ومنهجا. (باي، 2006، صفحة 148)

ومما يبرر هذا الإحساس لدى مالك بن نبي بالبعد التربوي لعملية التغيير الاجتماعي وإعادة البناء، ما قام بطرحه التربوي الأمريكي **تيدور براملد** ضمن الإحساس بحاجة المجتمع الأمريكي لإعادة البناء، حيث طرح نظريته باسم (إعادة البناء والتجديد الاجتماعي) في الفترة ما بين (1950

مجلة التغير الاجتماعي * ISSN 2507-7473 * المجلد السادس العدد 11 (2021) * ص113-134

و1965)، تتلخص في أنه لا بد أن توجِد التربية نظاما اجتماعيا جديدا في أمريكا لمواجهة احتمال تقويض الحضارة لنفسها. فالتربية لمواجهة هذا الاحتمال، يمكنها أن تحدث التغيير في عقول الناس وتعديل الحياة في المجتمع، بما يواجه مطالب أزمة الثقافة وأزمة البناء الاجتماعي الراهن. (جورج، بلا تاريخ، صفحة 67)

ومن هذا المنطلق يؤكد علي القريشي أنه إذا كان الإحساس بالبعد التربوي لعملية إعادة البناء، عند براملد إزاء مواجهة تصدع البناء القائم، إحساسا مشروعا، فإن هذا الإحساس عند مالك بن نبي إزاء تأسيس بناء قائم أصلا، يصير مسألة منطقية موضوعية في آن واحد. (القريشي، 1989، صفحة 220) إن البعد التربوي للتغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي يبرز جليّا من خلال تركيزه على الإنسان كمادة للتغيير، واهتمامه بمختلف أبعاده الخلقية والجمالية والعقلية، والنفسية، والسلوكية، والاجتماعية، وممارسة التأثير عليها بما يحقق التغيير المرغوب منه الذي هو هدف التربية المنشود.

ومن جانب آخر يرى ابن نبي أن حل مشكلات المجتمعات البشرية اليوم والتي لا تعاني حسبه من مشكلة واحدة فحسب، وإنما من مشاكل متنوعة تتفاوت تبعا لاختلاف المجتمعات، واختلاف المرحلة التي يعيشها كل مجتمع. ينبغي أن يتحدد هذا الحل في ضوء ظروف ومعطيات المرحلة الاجتماعية، وهذه الحقيقة كما يقول « تحتم علينا في حل المشكلات الاجتماعية، أن ننظر مكاننا من دورة التاريخ، وأن ندرك أوضاعنا وما يعتريها من عوامل الانحطاط ما تنطوي عليه من أسباب التقدم. وعليه فإنه لا يجوز لأحد أن يضع الحلول والمناهج مغفلا مكان أمته ومركزها، بل يجب أن تنسجم أفكاره وعواطفه وأقواله وخطواته مع ما تقتضيه المرحلة التي فيها أمته، أما أن يستورد حلول من الشرق أو الغرب، فإن ذلك تضييع للجهد، ومضاعفة للداء. إن كل تقليد في هذا الميدان جهل وانتحار». (مالك، شروط النهضة 1988، الصفحات 27-28)

ومن ثمّ ينبغي التفريق بين مشاكل الإنسان الخارج من نهاية دورة حضارته – كما هو حال الإنسان المسلم اليوم- ومشاكل الإنسان السابق لدخول الحضارة، والإنسان الداخل في حضارة. فالمسلم اليوم مسلوب الحضارة و « لم يعد قابلا لإنجاز عمل محضر Oeuvre

Civilisatrice إلا إذا تغير هو نفسه عن جذوره الأساسية». (مالك، شروط النهضة 1988، صفحة 70)

إن هذه الرؤية الحضارية للمجتمع ومشكلاته، تبرز عند مالك بن نبي تفاوت أولوية التربية من أجل التغيير بين مجتمع وآخر. فالمجتمع المعطل عن إنجاز عمل محضر، سواء أكان سابقا لمرحلة دخول الحضارة كالمجتمع الجاهلي قبل الإسلام، أم خارجا من دورة حضارية كالمجتمع الإسلامي اليوم، تشتد حاجته إلى التربية كأساس لعملية التغيير الاجتماعي، باعتبار أن الإنسان الفاقد للروح المغيرة، ولقيم الفعالية، ولإرادة التغيير تنبع مشكلته من داخله من نفسه التي تحتاج إلى إعادة في الصياغة، وتعديل في الإرادة، والقيم، وبث لروح التغيير. وما مشكلة المجتمع الإسلامي اليوم إلا مشكلة تربوية بالدرجة الأولى. (القريشي، 1989، صفحة 121)

وهذه المشكلة التربوية منوطة بالإنسان المسلم الذي يحتاج إلى إعادة الروح، والدفع السلوكي الفعال الذي يهيئه – وبالتالي المجتمع- للإصلاح وإحداث التغيير، لذا فإنه إذا قارنا نفسيا وتربويا بين إنسان أوروبا – في المرحلة الاستعمارية خاصة- وإنسان العالم الإسلامي اليوم، فسنجد الأول ممتلئا بروح السطوة والشعور بالثقة والتفوق، بينما الثاني يعيش حالة نفسية وتربوية يتحكم فيها الضعف والاضطراب، والسلبية والتخلف والشعور بالنقص والقابلية للاستعمار والقابلية للتبعية. فالأول في حالة تربوية إيجابية اكتسب فعاليتها من طوره الاجتماعي الخاص، والثاني في حالة تربوية سلبية اكتسب فعاليتها من طوره الاجتماعي الخاص به. (القريشي، 1989، صفحة 122)

وبناء على ذلك، فإن ابن نبي يرى أنه إذا وجد الإنسان الأوروبي وهو يعيش حالة من عدم الملائمة بين حاجاته وتيار الإنتاج الصناعي المسرع، فإن هذا الوضع ناتج عن عدم التوازن الاقتصادي في حياته، وهذه مشكلة اجتماعية بالدرجة الأولى، يسميها بن نبي بمشكلة حركة. بينما تتجلى أزمة الإنسان في العالم الإسلامي في توازنه الخامد، وهذا يمثل مشكلة الركود. فالمشكلة الأولى تحتاج إلى حل يتعلق بعلاج المؤسسات بالدرجة الأولى، بينما المشكلة الثانية تحتاج إلى حل يتعلق بالتربية والإعداد للإنسان نفسه، تحتاج إلى أن نصنع رجالا يمشون في التاريخ، مستخدمين

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد السادس العدد 11 (2021) * ص113-134

التراب والوقت والمواهب (مالك، شروط النهضة 1988، صفحة 82) لأجل إيجاد الحركة وإمداد التغيير الحضاري بنفحة روحية جديدة.

إذن فتحديد المشكلة الأساسية في المجتمع، مرتبط بتحديد المرحلة التي يعيشها المجتمع في ضوء الرؤية الحضارية، وبالتالي فالأساس التربوي للتغيير سيكون أكثر ضرورة للمجتمع الذي يعاني من الركود النفسي، منه للمجتمع الذي يعاني من مشكلة لا تتعلق بفعاليته كإنسان. (القريشي، 1989، صفحة 122)

ولهذا لا نبالغ إذا قلنا أن حجر الزاوية في أي تغيير أو تجديد اجتماعي إنما يتمثل في دور التربية في النهوض بهذا الإصلاح. وإن كان ذلك ينطبق على جهد الإصلاح في أي فترة زمنية، فإنه يصدق بصفة أخص على العالم الإسلامي اليوم، وفي هذه الفترة الزمنية التي نعيشها والتي عادة ما نرمز إليها بالعالم المعاصر. (مطر، كريم 2002، صفحة 172)

2.الإستراتيجية التربوية للتجديد الاجتماعي وإعادة البناء عند مالك بن نبي

إن وضع إستراتيجية تربوية للتغيير الاجتماعي، يعني الاهتمام بالتخطيط، فالتغيير الذي يستند إلى التخطيط هو أكثر شمولا واتساعا وفعالية من التغيير العفوي أو التلقائي، فعملية التخطيط تكسب التربية قوة اجتماعية تجعلها محددا أساسيا للتغيير واتجاهه، لأنها تعمل على تعميق وزيادة سرعة التغيير.

ولمّا كانت الغاية النهائية من التربية -كما استخلصناها عند مالك بن نبي- تكمن في خلق بديل اجتماعي وثقافي لما هو موجود، باعتبار أن ما هو موجود يكرس وضعية التخلف ويسجن الطاقات، فإن التربية التي يراها ملك بن نبي كفيلة بتحويل هذا الواقع المعيش من حالته السكونية المتخلفة إلى حالة حركية متطورة تستند إلى إستراتيجية تربوية للتغيير الاجتماعي والتي تكمن في عملية التجديد الذي يستند على بعدين أساسيين هما:

1.2. إدراك معوقات التغيير الاجتماعي " عملية التجديد السلبي "

أي معرفة معوقات التغيير ومن ثم تصفيتها وإزالتها، وهو ما أطلق عليه ابن نبي " عملية التجديد السلبي "، أي أنه تجديد يتم بطريقة سلبية تحدث القطيعة مع رواسب وموروثات الماضي. (مالك، مشكلة الثقافة 1984، صفحة 71) وخاصة وأن مجتمع ما بعد الحضارة(ما بعد الموحدين) عند مالك بن نبي هو مجتمع متفسخ، استولت عليه الجراثيم والأمراض وتكاثرت مع الزمان، فهو لم يعد يقدر على ردعها لأن جهازه المناعي قد انهار.

ولما كان الهدف من التغيير والتجديد الاجتماعي عند مالك بن نبي هو بناء حضارة من نوع خاص، فإن الهدف كي يتحقق إنما هو بتحديد الداء الذي يشكو منه هذا العالم من منظوره التاريخي ليس إلا. (نورة، 1997، صفحة 174)

فهناك من رأى أن الأزمة سياسية تحتاج حلا سياسيا، فركز كل جهوده في التغيير والإصلاح السياسي، وهناك من رأى أنها أزمة أخلاقية تستلزم حلا أخلاقيا، وهناك من رأى أنها أزمة عقدية تستلزم إصلاح العقيدة. غير أن ابن نبي انتقد هؤلاء جميعا، ذلك أنهم لم يحددوا بدقة مكمن الأزمة، فتوجهوا إلى عرض من أعراضها، في حين أن المرض يكمن في نفس المسلم وفي ثقافته الموروثة، كما هو كامن في سلوك المسلم وتصرفاته اليومية. (بدران، 1999، الصفحات 46 - 47) فابن نبي وبعد فحص منهجي دقيق لوضعية هذا المجتمع، وقف على هذه السلبيات في تعطيل حركة المجتمع، كما وقف على المواطن التي تتجلى فيها من حيث كونها معوقات للتغيير والتجديد الاجتماعي المطلوب، يتوجب تصفيتها. ويمكن بيان هذه السلبيات على النحو التالي:

1.1.2 سلبيات على مستوى الأشخاص

أول معوقات التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي علاقة الفرد المسلم بدينه، إذ قلّ تأثير الفكرة الدينية في مرحلة ما بعد الحضارة بعد أن كان الدين إشعاعا روحيا يركب الإنسان والتراب والوقت تركيبا اجتماعيا، فأصبح نزعة فردية فقد بها الإنسان الخارج من الحضارة رسالته التاريخية، فإنسان ما بعد الموحدين لم يفقد عقيدته، بل بالعكس بقي مسلما، ولكنه فقد التأثير الاجتماعي

لعقيدته تبعا لذهاب الفاعلية الروحية لديه. فالدين لم يلغ نهائيا من الحياة، وإنما فقد تأثيره الإيجابي الفاعل في خلق المبررات الكفيلة ببناء شخصية هذا الإنسان وتكييفه اجتماعيا.

فالعلاقة بالدين بقيت موجودة ولكنها ليست هي تلك العلاقة التي يريدها الدين، إنها علاقة سلبية انحرفت عن مسارها الطبيعي فشوهت صورة الدين وطبيعته، حيث أصبحت تغلب على حياة الناس القدرية وترقب المهدي المنتظر، والميل إلى التصوف من أجل الخلاص. (مالك، شروط النهضة 1988، الصفحات 30 -31)

ومهما يكن من تلك الحقيقة الإيمانية التي كان يسمعها هذا الإنسان في المسجد، فتهز لحظة تلقيها كيانه، وتوقظ في نفسه الإرادة والعزيمة النائمتين، هذه الحقيقة للأسف، لم يكن يقدر على اصطحابها معه إلى الشارع، بل كان يتركها عند عتبة باب المسجد بمجرد مغادرته له. (مالك، ميلاد مجتمع 2002) لذلك فالمجتمع الإسلامي اليوم، ترى فيه مسلمين ولا ترى فيه إسلاما، تسمع فيه صوت الآذان، وخطب الجمعة والعيدين، ولكن لا ترى فيه الدين كظاهرة اجتماعية، أو كواقع اجتماعي.

ثم ينتقل مالك بن نبي حين تشخيصه لتلك السلبيات إلى الحديث عن علاقة الأشخاص بالفكرة، وتجده يركز في معالجته لمشكلة الأفكار على الدور الوظيفي للفكرة، أي على فعاليتها الاجتماعية، وليس على قيمتها الفلسفية المجردة. (مالك، مشكلة الأفكار 1988، صفحة 111) وقد مكنته هذه الرؤية في تناول الأفكار من تبين قيمة الأفكار المتداولة وقياس فعاليتها في العالم الإسلامي الراهن، وبالتالي معرفة طبيعة العلاقة التي تربط مسلم اليوم بعالم الأفكار، حيث يؤكد بأن العلاقة التي تربط المسلم بعالم الأفكار في المجتمع الإسلامي الحالي هي ذات طبيعة سلبية تؤكدها اللافعالية على أرض الواقع وذلك على كافة الأصعدة الأخلاقية والمادية على حد السواء. (مالك، مشكلة الأفكار 1988، صفحة 159) ومرد ذلك – حسب مالك بن نبي- يعود إلى نوع الأفكار التي يتعامل معها إنسان ما بعد الموحدين، فابتعاد هذا الإنسان عن الأفكار الأساسية الأصلية وعدم قدرته على إدراك وبالتالي احترام علاقات الأفكار الضرورية القائمة بين مختلف المراتب

مجلة التغير الاجتماعي *ISSN 2507-7473* المجلد السادس العدد 11 (2021) * ص113-134

الأخلاقية، المنطقية والتقنية، المتعلقة – على التوالي- بعالم الأشخاص، عالم الأفكار وعالم الأشياء[1]، والاتجاه في نفس الوقت في نضح الأفكار الميتة وامتصاص الأفكار القاتلة.

أما عن العلاقة التي تربط مسلم اليوم بعالم الأشياء فتبرز مظاهرها السلبية كما يرى مالك بن نبي في اعتماد المسلم اليوم على الاستهلاك دون الإنتاج. بل أن استهلاكه هذا لا يتقيد بحدود الحاجة ولا يقف عند مجال معين، بل إنه يعم مجالات الحياة كلها حتى الزراعية منها، ويتجاوزها إلى أشياء غير ضرورية، والتي غالبا ما تتنافى وقيم المجتمع الثقافية والأخلاقية، تتجاوزها إلى الكماليات والموضة التي أصبحت تتخذ كمقياس يدل على تحضر صاحبه.

هذه النظرة إلى الأشياء وتقييمها من باب الكم وليس من باب الحاجة والمنفعة يسميها مالك بن نبي بالشيئية، ذلك أنه عندما يتمحور عالم الثقافة حول الأشياء تحتل هذه الأشياء القمة في سلم القيم وتتحول الأحكام النوعية خلسة إلى أحكام كمية من غير أن يشعر صاحب هذه الأحكام بانزلاقه نحو الشيئية، أي نحو تقييم كل الأمور بمقياس الأشياء. (مالك، مشكلة الأفكار 1988، صفحة 79)وهكذا تتحول هذه النزعة في المجال الفكري إلى شكل من أشكال المادية والتكديسية، كما هي الحال أيضا في مناهج مدارسنا التي تغلب عليها النزعة التكديسية للمعلومات. (القريشي، 1989، صفحة 182)

وفيما يخص علاقة المسلم بالعمل فيرى مالك بن نبي أن إنسان ما بعد الموحدين قد أضاع معنى العمل وقيمته، فأضاع معها تقييمه الحقيقي للشيء، أي تقديره للجهد المطلوب والوسائل اللازمة والوقت الضروري لإنجاز عمل ما. وقد انجر عن ذلك إصابة هذا الإنسان بذهاني(deux psychoses) (الاستحالة والسهولة)، ذهان الشيء المستحيل الذي يجعل الإنسان يحكم مسبقا ومن الوهلة الأولى بأن النشاط فوق مستوى الوسائل التي يملكها، مما يفضي به إلى الشلل التام،

---

[1] - المرتبة المنطقية،الإيديولوجية، السياسية بالنسبة لعالم الأشخاص.

- المرتبة المنطقية، الفلسفية، العلمية بالنسبة لعالم الأفكار.

- المرتبة التقنية، الاقتصادية، الاجتماعية، بالنسبة لعالم الأشياء. (مالك، مشكلة الأفكار 1988، صفحة 64).

وذهان الشيء السهل الذي لا يستدعي منه بذل أي جهد. إنه الأمر الذي يستملي هذا الإنسان إلى الكسل، أو يقوده إلى النشاط الأعمى. (مالك، وجهة العالم الاسلامي 1986، صفحة 87)

كل هذا يقود الإنسان إلى أن يفقد علاقته بأسس العمل المنتج التاريخي، أي بالتراب وبالوقت، فيصبح التراب وكل ما يرتبط به بورا لا قيمة له، ويصبح الوقت سائبا لا يفيد في شيء، اللهم إلا لإشباع رغبات ذاتية مؤقتة، وهكذا تنطبع هذه السلبية على أنا الفرد فتخلق عنده عقدا نفسية تصيّره صاغرا إلى مستهلك سلبي ومقلد أعمى (باي، 2006، صفحة 103) لكل ما تنتجه حضارة الغير، فتكون النتيجة في نهاية المطاف الرضوخ لسلطان تلك الحضارة فيصبح تابعا لها.

ثم ينتهي ابن نبي بعد تشخيصه لسلسلة السلبيات إلى الإشارة إلى ما آلت إليه هذه الأخيرة، حيث اضمحلت علاقة الفرد بمجتمعه، وفي تحليل مالك بن نبي لهذه العلاقة في مجتمع ما بعد الموحدين، وجد أن لوظيفته الإشتراطية التكيفية بالنسبة لانعكاسات الإنسان، أدى إلى التخلي عن الواجب والنزوع نحو الفردية واستفحالها، كما أدى في ذات الوقت إلى تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية، وإلى انعدام تلك الشروط التي كان يتولد عنها العمل المشترك المنسجم والهادف، الذي من شأنه أن يضمن للمجتمع استمرار سيره والإبقاء على حركته التاريخية. **(باي، 2006، صفحة 44)** فكلما زادت غلبة النزعة الذاتية على النزعة الاجتماعية، زاد تحلّل شبكة العلاقات ونقصت الفعالية الاجتماعية، وكلما نقص الدافع إلى العمل المشترك تقلصت الفعالية الاجتماعية وزاد النزوع نحو الفردية. **(باي، 2006، صفحة 67)** فنزوع الإنسان المسلم اليوم نحو الفردانية يدل على تخليه عن التكليف الديني الأخلاقي المنوط به كفرد، كما يدل على تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية وغياب الفعالية والعمل المشترك.

2.1.2.سلبيات على مستوى الثقافة العربية الإسلامية الراهنة

لقد تعرض مالك بن نبي في مختلف كتاباته لأهم السمات المرضية المنتشرة في الثقافة العربية الإسلامية الراهنة، ولانعكاساتها السلبية على سلوك الفرد وعلى نظام الحياة في المجتمع، المترتبة عن تحلل العالم الثقافي. وأول الأنماط ثقافية ذات التأثير السلبي الشديد على بنية المجتمع بعد ذلك ما اصطلح عليه بـ " التعالم "، ويطلقه ابن نبي على النخبة في المجتمعين العربي والإسلامي. وهو عنده صفة مرضية تعني "الحرفية في الثقافة" (مالك، شروط النهضة 1988، صفحة 90)

مجلة التغير الاجتماعي * ISSN 2507-7473 * المجلد السادس العدد 11 (2021) * ص113-134

وادعاء العلم والمعرفة. ويرجع مالك بن نبي بروز هذا الصنف من المتعالمين أو المتعاقلين إلى ثقافة النهضة العربية التي لم تنتج سوى حرفيين منبثين في صفوف شعب أمي. وهؤلاء المتعالمون كما يقول مالك بن نبي لم يتقنوا العلم ليصيروه ضميرا فعالا، بل ليجعلوه آلة للعيش، وسلما يصعدون به إلى منصة البرلمان. (مالك، شروط النهضة 1988، صفحة 91)

ومن هذه المعاينة تأتّى لمالك بن نبي اعتبار ظاهرة التعالم هذه مرضا عضالا يستعصي علاجه، لأنه علم زائف لا ينتفع به، وهو بهذا المعنى جهل خطير ليس كجهل الأميين القابل للعلاج. وحقيقته أنه « جهل حجرته الحروف الأبجدية، [فهو] لا يقوّم الأشياء بمعانيها ولا يفهم الكلمات بمراميها، وإنما بحسب حروفها، فهي تتساوى عنده إذا ما تساوت حروفها»، (مالك، شروط النهضة 1988، صفحة 91) مما يعمل على الإبقاء على وضعية المجتمع المتقهقرة وتكريسها، وإجهاض أية فكرة عن النهضة والتغيير.

وهناك ظاهرة مرضية أخرى هي السمة التي يراها مالك بن نبي تطبع ثقافة مجتمع ما بعد الموحدين اليوم، وهي " اللفظية " والتي تعني اللفظية الاستخدام الواسع للألفاظ الأدبية الرنانة والثرثرة في الحديث، وذلك على حساب الكلمة الدالة المعبرة التي تربط الفكرة التي تترجمها الألفاظ اللغوية بالواقع العملي وبالسلوك لدرجة أفرغت معها الكلمات من مضامينها، وصيرت اللغة أداة وهمية، (القريشي، 1989، صفحة 174) بحيث لا تنبئ عن عمل ونشاط، وتصير مجرد ألفاظ مرصوفة، فيفقد بذلك الكلام قدسيته وعلاقته الجدلية مع الفكر والعمل، وقد كانت لهذه الظاهرة "اللفظية" نتائج مباشرة، إذ أصبحت أحكام الإنسان على الأشياء أحكام سطحية أضعفت قدرته على التقدير الصحيح للأمور. (القريشي، 1989، الصفحات 174 - 175)

وقريب من هذه الصفة التي يتسم بها المجتمع المسلم على مستواه الثقافي نجد "الاضطراب الفكري والسلوكي " وهي سلبية أخرى في ثقافة مجتمع ما بعد الموحدين، ذلك أن المنتج المادي والثقافي للغرب الذي يشمل انتشاره المجتمع العربي والإسلامي، قد أوقع هذا المجتمع في حالات من الاضطراب الفكري والسلوكي، فالتوق نحو الموروث أو المستحدث في الثقافة العربية والإسلامية الراهنة بدلا من أن يتحول – كما يقول مالك بن نبي- إلى صيغة تخدم منهجية التغيير فإنه أوجد تناقضا وتقاطبا مزدوجا (Polarisation)، (مالك، فكرة كومنولث إسلامي 2000، صفحة 25)

أخذت تعكسه من جانب بعض الاتجاهات الثقافية في موقف يرمي إلى الحفاظ على القديم وإن كان ميتا، كما تعكسه من جانب آخر بعض الاتجاهات الثقافية الأخرى في موقف يرمي إلى استنبات الأفكار الأجنبية حتى وإن كانت قاتلة، وتلك هي ظاهرة الأفكار الميتة والأفكار القاتلة.

إن هذين الموقفين المتعارضين في المجتمع الواحد يعبران عن حالة اضطراب أخلاقي وانشطار سلوكي، وعن لا تناغم ثقافي في هذا المجتمع، ويرجع ابن نبي سبب ذلك إلى غياب الوعي بعمق المشكلة وخطورتها، مشكلة التعصب للماضي والاستعارة الحرفية لثقافة الغالب، وإلى عدم القدرة على النقد والتحليل والتركيب والتكييف. (مالك، وجهة العالم الاسلامي 1986، صفحة 79)

وفي آخر تشخيص ابن نبي للواقع الثقافي للأمة العربية والمسلمة، ينتهي إلى تحديد الداء العضال في جسد هذه الأمة وهو ما يسميه بـ " القابلية للإستعمار". ويستمد مالك بن نبي مفهوم القابلية للاستعمار من المناخ الثقافي والاجتماعي في مجتمع الانحطاط أو ما بعد التحضر، كما يظهره جليا واقع المجتمعات المستعمرة، وكما يظهره واقع الفرد في نفسيته أو سلوكه المتصف بالسلبية والاستسلام.

وحتى المجتمعات الإسلامية المعاصرة التي استطاعت أن تلقي بالكيان الاستعماري خارج أراضيها، ما تزال عند كاتبنا امتدادا لأوضاع عصر ما بعد الموحدين، ذلك أن ظاهرة الاستعمار التي تعرضت لها معظم المجتمعات الإسلامية لم تكن لتحدث لو لم تكن هناك قابلية للاستعمار في البنية الاجتماعية للمجتمع، وفي ذهنية إنسان ما بعد الموحدين وعقله. (مالك، وجهة العالم الاسلامي 1986، صفحة 95) فها هو الاستعمار يعود إليها اليوم في شكله المقنع الجديد، ليتحكم في مصيرها إيديولوجيا وسياسيا واقتصاديا وثقافيا، وقد يلجأ هذا الاستعمار إلى أن يعود بشكله السابق كما هو حادث اليوم في أفغانستان والعراق.

فالقابلية للاستعمار« باعتبارها عاملا مكبحا لكل جهد اجتماعي، توضح عدم تأهيل الإنسان المسلم لتشييد حضارة، فهي تشكل أمامه سدّا يمنعه من دخول التاريخ واندفاعه فيه من جديد، هذا التاريخ الذي أقصي منه منذ سقوط دولة الموحدين. إن هذه القابلية هي التي طبعت على نفسية الفرد اللافعالية، وحددت السمة العامة للسلوكات والثقافية والأفكار في المجتمع. إنها تشبه المرض الذي يعرض المجتمع إلى الاستعمار تماما كنقص المناعة الذي يعرض جسم الإنسان

مجلة التغير الاجتماعي * ISSN 2507-7473 * المجلد السادس العدد 11 (2021) * ص113-134

لأخبث الأمراض. فكل الإشارات البارزة التي تجعل المجتمع في وضعية سابقة على الاستعمار (استعماره) توجد هنا مجتمعة. وباختصار، فإن القابلية للاستعمار هي التي قدمت الشعوب المغلوبة على أمرها غنيمة سهلة للاستعمار». (باي، 2006، صفحة 127)

إن وقوف مالك بن نبي عند هذه السمات والنظر إليها كظواهر سلبية، وآفات مرضية كان نتيجة شيوعها واستفحالها لدرجة أصبحت معها هذه السمات تشكل جزءا لا يتجزأ من التركيبة النفسية والثقافية لمجتمع ما بعد الموحدين، وهذا ما يشهد عليه واقع هذا المجتمع اليوم، كما أن هذه السمات مجتمعة تتداخل وتتفاعل فيما بينها سلبا، بحيث يصعب بيان السبب فيها من النتيجة.

2.2.إدراك عوامل التغيير الاجتماعي " التجديد الإيجابي "

ويعني ذلك معرفة عوامل التغيير ومن ثم العمل على ترسيخها، وهو ما يسميه مالك بن نبي بالتجديد الإيجابي، الذي يقوم بوظيفة مد وتطعيم الثقافة بأفكار جديدة بناءة تصلها بالمستقبل وبالحياة الكريمة. (مالك، مشكلة الثقافة 1984، صفحة 71)

إن هذه العوامل هي عبارة عن **مفاهيم وصيغ تربوية** طرحها مالك بن نبي كموجهات لعمليات إعادة تجديد البناء الاجتماعي، في ضوء التصورات البنائية العامة لديه. وما يميز هذه العوامل أنها في جملتها ذات صلة بالواقع الحياتي للمجتمعات الإسلامية، موجهة مباشرة إلى الإنسان المسلم في مختلف أبعاده: الروحية، والنفسية، والسلوكية، والاجتماعية، والعقلية، والأخلاقية، والجمالية، والفكرية، والمفاهيمية. بغرض خلق شروط الفعالية عنده لكي يكون جديرا بحمل رسالة التغيير، باعتباره مادة التغيير الأساسية وسيلتها وهدفها في نفس الوقت.

ويمكن بيان هذه العوامل التي يراها مالك بن نبي كفيلة بإحداث التغيير الاجتماعي المطلوب إذا ما استطاعت التربية أن تتبناها في برنامجها الثقافي:

- إن عالم الأفكار وعالم الأشياء كعنصر أساس من عناصر التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي لا وجود لها إلا بوجود عالم الأشخاص، وإن عالم شبكة العلاقات الاجتماعية متوقف على الحالة التي هو عليها عالم الأشخاص، فما تمزقت شبكة العلاقات الاجتماعية في العالم الإسلامي اليوم

إلا لانهيار عالم الأشخاص فيه. لهذا كان لا بد من إعادة تشكيل عالم الأشخاص لأنه يمثل القاعدة الصلبة التي ينطلق منها كل عمل تاريخي مشترك. ذلك أن عالم الأشخاص تعبر عنه شبكة العلاقات الاجتماعية في وسط ثقافي ما. وبقدر ما تكون هذه الشبكة متصلة بمبرراتها الروحية تكون قوة تماسك خيوطها، لأن العلاقة الاجتماعية هي ظل العلاقة الروحية، ويكون بذلك مردود النشاط المشترك مرتفعًا. (مالك، ميلاد مجتمع 2002، صفحة 57)

ويؤكد مالك بن نبي أن فعالية المجتمعات تزيد أو تنقص بقدر ما يزيد فيها تأثير المبدأ الأخلاقي أو ينقص، فإن موقفها إزاء المشكلات محددة بذلك المبدأ الذي يكون الشرط الأساسي لأفعالها، حيث ينظم فيها علاقات الأشخاص تنظيما يناسب المصلحة العامة. (مالك، تأملات 1988، صفحة 26)

- يعد المنطق العملي **هدفا تربويا** ذا أهمية كبيرة عند مالك بن نبي، ذلك أنه هو المقياس الذي يحدد فعالية الأفكار وصلاحيتها. فصلاحية الفكرة لا يكون بصحتها المنطقية، فهي في هذه الحالة لا تعدو كونها فكرة مجردة، فكرة حبيسة العقل، وإنما تقاس صحتها بمدى فعاليتها في الواقع. فمسلم اليوم – كما يرى مالك بن نبي- « لا يفكر ليعمل، بل ليقول كلاما مجردا، فهو يتكلم تبعا لمبادئ القرآن، ومن العبث أن نقول أنه يعيش طبقا لهذه المبادئ». (مالك، مشكلة الثقافة 1984، صفحة 87) لذلك اشترط مالك بن نبي توافر الفعالية كمنطق عملي في كثير من الأنشطة الإنسانية، سواء على صعيد الفكر أو العلم أو العمل، لهذا كان انتقاده **لمدارس الإصلاح** (التيار الإصلاحي التقليدي) التي ركزت في تعليمها على المسائل الميتافيزيقية من قبيل البرهنة على وجود الله بما لا مبرر له عمليا لأناس مؤمنين أصلا، في مقابل إغفالها التركيز على الوظيفة الاجتماعية العملية للدين. (مالك، وجهة العالم الاسلامي 1986، صفحة 48)

فما يجب على المسلم اليوم، وما هو بحاجة إليه، هو إيجاد الرابط الذي يربط بين عالم الأفكار وعامل الأشياء لتحقيق الأهداف التي رسمها عالم الأفكار على أرض الواقع، ومن خلال تعامله مع معطيات هذا الواقع سيكتسب خبرة تنعكس على فكره وسلوكه، فتطبعه بطابع منطقي عملي. ولهذا كان مالك بن نبي يشدد على ضرورة إيجاد أفكار علمية عملية يواجه بها كل جيل ظروفه التاريخية الخاصة. (مالك، مشكلة الأفكار 1988، صفحة 57)

مجلة التغير الاجتماعي * ISSN 2507-7473 * المجلد السادس العدد 11 (2021) * ص113-134

- يؤكد مالك بن نبي على ضرورة تنمية الوعي لدى الإنسان المسلم اليوم، بمعنى تنمية شعوره بالذات وبوضعيتها ومصيرها التاريخيين، واستشعار واقعها الاجتماعي المتخلف وتبعيتها للآخر، وفي نفس الوقت إدراك خصوصيتها الثقافية وانتمائها الحضاري، مع معرفة إمكانياتها وقدراتها المادية والمعنوية المتاحة في إطار طبيعة الصراع الحضاري التاريخي.

كما يؤكد مالك بن نبي على ضرورة إثارة وعي هذا الإنسان عن طريق بث وإثارة قلق الحاجة إلى التغيير، والدعوة إلى تجاوز الواقع الراهن سيكون -كما يقول مالك بن نبي- « من أثر هذه الحالة في نفس الفرد أنها تحرمه الشعور بالاستقرار، بما يعتريه ويسيطر على مشاعره من قلق، لا يمكن دفعه إلا بتغيير الوضع، بتغيير الأشياء، بالوقوف أمام الحوادث لتوجيهها لغايات واضحة وقريبة من شعور الفرد». (مالك، تأملات 1988، صفحة 136)

ففكرة الإنقاذ هذه « قد أوجدت نتائجها **التربوية** والاجتماعية في كل مرة يمتص فيها المجتمع البشري مضمون الإنقاذ، حدث ذلك في المجتمع الألماني بعد الحرب العالمية الثانية وفي مجتمعات أخرى أحدث تشبعها بحالة الإنقاذ تغيرا هائلا في حياتها». (القريشي، 1989، صفحة 132)

- لبناء الأفكار دور بالغ في عملية التغيير الاجتماعي، فالعمل الفردي أو الاجتماعي لا يمكنه التحرك دون توجيه من الأفكار. فالأفكار هي التدابير المرتقبة التي ينتظر فيها الانعكاس في التجديدات المحسوسة للوجود. وتختبر على هذا الأساس بما تحدثه من تغيرات في النواحي السلوكية والبيئية. (النجيحي، 1978، صفحة 141) لذا يرى مالك بن نبي أن المجتمع في حياته وحركته، بل في فوضاه وخموده ركوده، ذو علاقة وظيفية بنظام الأفكار. فالأفكار تؤثر في المجتمع إما كعوامل نهوض، وإما كعوامل تعوق التحرك والنمو الاجتماعي.

- إن توجيه العمل **هدف تربوي** ذو أهمية كبيرة عند مالك بن نبي، ذلك أن « العمل وحده هو الذي يخط مصير الأشياء في الإطار الاجتماعي». (مالك، شروط النهضة 1988، صفحة 114) فالعمل يمثل إحدى حلقات مشكلة الإنسان عند مالك بن نبي بكونه نشاطا يتولد من تفاعل الإنسان مع الزمن والتراب، ويرتبط بدوافع هذا الإنسان وأهدافه. ويأخذ العمل عند مالك بن نبي معنيين: معنى تربويا، ومعنى كسبيا، فالمعنى التربوي للعمل يكمن في أهميته الاجتماعية بالنسبة لمجتمع لا يزال في طور التكوين، وهو يرتبط هنا بفكرة تقديم الواجب على الحق كما رأينا

مجلة التغير الاجتماعي * ISSN 2507-7473 * المجلد السادس العدد 11 (2021) * ص113-134

فيما سبق. أما المعنى الكسبي للعمل يظهر في مدلول الأجر (Salaire)، أي كل جهد يستحق أجرا. وهو هنا يرتبط بفكرة الواجب يساوي الحق، مثلما هو الحال بالنسبة للمجتمعات التي خرجت من طور التكوين منذ قرون إلى التنظيم القائم على تقاليد عريقة، تعبر عنها مفاهيم التخصص وتقسيم العمل المكتسبة من تجربتها التاريخية الطويلة. (مالك، شروط النهضة 1988، صفحة 114)

- عدّ مالك بن نبي الزمن والتراب من العوامل الأساسية اللازمة لإنضاج عملية التغيير الاجتماعي ، وهذه الفعالية التي يكتسبها الزمن والتراب مستمدة من فعالية الإنسان في المجتمع، ومدى ما يحمله من قيمة لهذين العاملين. إذ كلما كان نشاط الإنسان هادفا فعالا، كان لهذين العنصرين قيمة تحددها معاني هذا النشاط « فكل نشاط إجرائي منظم يقوم به الإنسان واقع في جانبه المعنوي التقديري، بالضرورة في إطار الزمن الذي يحدد بدايته ونهايته، ومتصل في جانبه المادي الموضوعي، لا محالة بالتراب الذي يتعامل معه». (باي، 2006، صفحة 165)

فقيمة التراب الاجتماعية تظهر من قيمة مالكيه وكمية ونوعية إنتاجه. إذ نجد أن البلدان المتحضرة ذات المساحة الضيقة والعدد الكبير للسكان هي التي تطعم وتمول تلك التي تفوقها مساحة وتقل عنها سكانا، فالسر يكمن في القيمة الحضارية للتراب، وكيف يستغل كعنصر فعال في البناء الحضاري. (الطيب، 2002، صفحة 132) وهذا ما يجب على **التربية** أن تتولاه.

بالإضافة إلى إبراز « مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط وفي تكوين المعاني والأشياء [بكونه عامل] تأثير في الإنتاج»، (مالك، شروط النهضة 1988، صفحة 146) وذلك طبقا لمنهج تايلور(Taylor) في تنظيم العمل. (مالك، القضايا الكبرى 1991، صفحة 88) وبناء على ذلك يرى مالك بن نبي ضرورة تثبيت فكرة الزمن عمليا في عقل المسلم. فمثلا لو تم **تعليم أفراد** المجتمع تخصيص نصف ساعة يوميا لأداء واجب معين بطريقة منظمة وفعالة، فإن نتيجة هذه العملية المتواصلة سوف تكوّن – بعد مدة من الزمن- حوصلة كبيرة من الساعات استغلت للصالح العام ولم تهدر عبثا، وبهذه الكيفية، وتدريجيا، ترتفع كمية الحصاد اليدوي والعقلي والروحي، فينطبع أسلوب الحياة في المجتمع بهذه الفكرة، كما ينطبع بها سلوك أفراده. (مالك، شروط النهضة 1988، صفحة 147) وبذلك يكون بوسع الإنسان المسلم اليوم أن يتجه إلى استغلال التراب بصورة

فعالة، تمنحه القدرة على بناء عالم أشيائه طبقا لعالم أفكاره، مما يشكل عاملا مهما نحو التغيير الصحيح والمثمر.

- فك التبعية والتخلص من القابلية لها إن تحقيق هذا **الهدف التربوي** ضرورة ملحة، لأن استمرار التبعية واستمرار القابلية لها، يؤدي إلى تعميق الأزمة وظهور سمات سلبية أخرى في ثقافة المجتمع المسلم اليوم، مما يعطل أكثر عملية التغيير في هذا المجتمع. والتبعية عند مالك بن نبي تأخذ أبعادا اقتصادية وثقافية، فأبعادها الاقتصادية تكمن في تبعيتي الاستهلاك والإنتاج. فتبعية الاستهلاك هي أن نستهلك ما ينتجه الآخرون، وتبعية الإنتاج هي أن ننتج على شاكلة ما ينتجون، دون مراعاة لاحتياجاتنا الخاصة وظروفنا المحلية. (باي، 2006، صفحة 168)

أما الأبعاد الثقافية، فتكمن في مظاهر الحياة عامة من عادات وأساليب العيش التي نستوردها من الغرب كنوع وطريقة الأكل واللباس والاحتفال... الخ، بالإضافة إلى نمط التفكير الذي نساير فيه الغرب، بما فيه الرأسمالية العلمانية واللائكية، العولمة... الخ. فهي بعبارة أدق تبعية في الفكر والعقيدة. (باي، 2006، صفحة 168)

- تطبيع المسلم على قيم الديمقراطية فهي مظهر من مظاهر الحياة الراقية، وأسلوب حياة في المجتمع المتحضر، وتكمن دلالتها في قيمة الفرد كإنسان حر، وهي القيمة التي على أساسها تتحدد علاقاته بالآخرين، فتطبع سلوكه في المجتمع وفق مقاييس تتوافق مع ذاتيته، ولا تتصادم مع حرية الآخرين، بأن يدرك أن حريته ونشاطه لا يتمان إلا ضمن حرية ونشاط الآخرين.

فحرية الفرد في المجتمع ليست شيئا فرديا بل هي مسألة اجتماعية تقتضي إدراجها ضمن عمليات الضبط وحسن التوزيع، سواء في أبعادها السياسية أو الاقتصادية أو التربوية. والحرية بهذا المعنى – كما يقول جون ديوي- هي **حجر الزاوية في التربية**. (القريشي، 1989، صفحة 236) وهذا ما ذهب إليه مالك بن نبي الذي يرى أن كل الإيديولوجيات الدينية والحديثة، جاءت لتروض الطاقة الحيوية للإنسان، وتضع حريته الفردية ومقتضياتها في حدود عمل المجتمع ومقتضياته، والإخلال بهذا المبدأ معناه تعريض العملية البنائية للخطر. (مالك، القضايا الكبرى 1991، صفحة 110)

لذلك نجد مالك بن نبي يؤكد على ضرورة **تولي التربية** مهمة تطبيع الإنسان المسلم اليوم على قيم الديمقراطية، وذلك بتخليصه من القابلية للاستصغار والحط من قيمته، وألا يقبل الاعتداء على حريته، أي أن يتخلص من العبودية، كما يتخلص هو بدوره من هذه الدوافع السلبية، وهذا بألاّ يستصغر غيره ويحط من قيمتهم ويعتدي على حرياتهم، أي بألاّ يستعبدهم، ذلك أن الإنسان الذي تنطبع فيه هذه القيم، والتزاماتها «هو الحد الإيجابي بين نافيتين تنفي كل واحدة منهما هذه القيم وتلك الالتزامات: نافية العبودية، ونافية الاستعباد». (مالك، القضايا الكبرى 1991، صفحة 139)

-يرى مالك بن نبي أن واقع تعاملنا **مع العلم والتعليم** ما زالت تحكمه الاعتبارات التقليدية، التي لا تربط العلم والتعليم بالحاجات الاجتماعي، والتي لا تنتج من العلم والتعليم غير عالم لا ينفع المجتمع إلا قليلا، أو عالم يضر المجتمع بعلمه. ولذلك يلاحظ « أن العلم السائد في العالم العربي والإسلامي لا يلامس الجراح، ولا يقوى على تخفيف المعاناة، وحل المشكلات بالشكل المناسب، وهذا الأمر مرده إلى الفشل في جعل العمل موجها من الفكر بواسطة التربية، وبناء الإنسان بناء ثقافيا جديدا». (السحمراني، 1986، صفحة 226)

لذلك يرى مالك بن نبي ضرورة إعادة النظر في **مناهج التعليم**، وأهداف إكساب العلم في ضوء هدف مركزي هو صناعة الإنسان الجديد، وتغيير معادلته الشخصية الراكدة. وهذا لا يتحقق إلا إذا كان هدف التعليم، ليس فقط اكتساب العلم النظري المجرد والفن التطبيقي، بل قبل هذا وذالك، التركيز على التربية السلوكية التي تستهدف بعث قيم الفعالية وتنمية الوعي بالمشكلات والتخلص من العادات السلوكية الراكدة والوعي بالأهداف العليا للمجتمع.

نقول أن استعراضنا لهذه **العوامل التربوية** يهدف إلى بيان أهميتها كعناصر حساسة في عملية التغيير الاجتماعي، كما يتصورها مالك بن نبي، وذلك استنادا إلى آثارها المادية والمعنوية المترتبة عن وظيفتها سواء في حالة الوقوع أو في حالة الرفع. (باي، 2006، صفحة 173) وإن هذه العوامل متداخلة بصورة معقدة يصعب التمييز بينها بدقة، إذ أن بعضها يستمد من بعضها الأعم منها، فتصبح بالتالي وسائل لها، وهي في النهاية تعد كلها وسائل لتحقيق الهدف العام للتربية وغايتها عند مالك بن نبي.

ومن شأن هذه العوامل أيضا أن تتجه في جملتها إلى تنميه الوعي، وشحذ الإرادة وإيقاظ الضمير وتحريك العضلات، وهي الشروط الضرورية التي يراها مالك بن نبي كفيلة بخلق شروط الفعالية لدى إنسان ما بعد الموحدين، هذه الشروط التي تمكنه من التخلص من مورثات الماضي السلبية ورواسبه، وفي ذات الوقت من إيجاد ظروف مادية ومعنوية جديدة، تصله بعجلة التاريخ وجدلية حركتها الصاعدة. (باي، 2006، الصفحات 173 - 174)

وإذا ما تحقق هذا يكون الإنسان المسلم في نظر بن نبي قد استكمل شروط استخلافه في الأرض، لأنه يكون عندئذ قد أحيا في نفسه دواعي السماء، فربط بذلك الحقيقة الغيبية، مصدر مبررات وجوده بحقيقته الأرضية، مصدر سعيه ورزقه. وإن ذلك لن يتحقق إلا من خلال الدور الذي يمكن أن تضطلع به التربية في عملية التغيير هذه عند مالك بن نبي.

- **الخاتمة:**

وصلنا في هذا البحث إلى تحقيق النتائج التالية:

- ثقافة المجتمع عند مالك بن نبي هي الصورة العاكسة لحضارته، ولما كانت الغاية من مشروعه التغييري هو تحقيق النهوض في المجتمع الإسلامي وإدماجه في حركة التاريخ، كان للتربية التي يتطابق مفهومها مع مفهوم الثقافة عند ابن نبي دور الريادة في بعث الحركة في هذا المجتمع من جديد، وتحقيق الإقلاع الحضاري.
- تجلي الدور الحيوي للتربية والذي تفرضه المرحلة التاريخية للمجتمع المسلم المتخلف، ووضعية الإنسان فيه باعتباره إنسان فاقد للروح المغيرة ولقيم الفعالية، ولإرادة التغيير، وبذلك فمشكلة المجتمع تنبع من داخله، من نفسه التي تحتاج إلى إعادة في الصياغة، وتعديل في الإرادة والقيم، وبث لروح التغيير.
- ولما كان التغيير الاجتماعي الذي ينشده مالك بن نبي في مجتمع ما بعد الموحدين ينطوي على مفهوم عام واسع يشمل الإطار الثقافي برمته، فإن مفهوم التربية الملازم له يصبح هو الآخر مفهوما عاما واسعا، متجاوزا بذلك الحدود الكلاسيكية المتعلقة بالمؤسسات

التعليمية(المدرسة) لذلك نجد أنه لم يكن يركز على المتعلم، بل على الإنسان، وإعداده إعدادا شاملا من جميع النواحي.

- إن التربية التي ينشدها ملك بن نبي، والتي يراها كفيلة بتحويل هذا الواقع المعيش من حالته السكونية المتخلفة إلى حالة حركية متطورة، تستند إلى استراتيجية تربوية للتغيير الاجتماعي، والمتمثلة في عملية التجديد التي تنتهج طريقتين هما؛ معرفة معوقات التغيير، ومن ثم تصفيتها وإزالتها، أي بطريقة سلبية تفصلنا عن رواسب الماضي. ومعرفة عوامل التغيير، ومن ثم العمل على ترسيخها، أي بطريقة إيجابية تصلنا بمقتضيات المستقبل.
- وإن التربية عند مالك بن نبي تركز كثيرا على الجانب الروحي، لأن الأخلاق التي يقصدها، هي الأخلاق الدينية وليست الأخلاق الوضيعة، باعتبار أن الدين (الفكرة الدينية) أساس التغيير الاجتماعي عنده.
- والتربية عند مالك بن نبي بمختلف أنواعها تهدف إلى تحقيق التغيير والنهوض بالمجتمعات الإسلامية، في انطلاقة حضارية شاملة، تتيح لها العودة إلى مرحلة التألق الحضاري، وذلك في إطار منظومة ثقافية متماسكة.

▪ قائمة المصادر والمراجع

1- إبراهيم ماضي، حوار مع مالك بن نبي، سلسلة كتاب التربية الإسلامية. ط: 1. باريس: مركز التربية الإسلامية. ص24.نقلا عن محمد بغداد باي، التربية والحضارة.

2- أسعد السحمراني، مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا. ط:2. بيروت: دار النفائس، 1986.

3- بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري، أنموذج مالك بن نبي. ط:1. سلسلة كتاب الأمة، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون افسلامية. العدد: 73، 1999.

4- بن براهيم الطيب، مالك بن نبي وابن خلدون، مواقف وأفكار مشتركة. دار مدني، 2002.

5- جورج. ف. نيللر، مقدمة إلى فلسفة التربية، ترجمة نظمي لوقا. القاهرة: الأنجلو المصرية.

8- الطيب برغوث، مدخل إلى سنن الصيرورة الاستخلافية، قراءة في سنن التغيير الاجتماعي. ط:1. الجزائر: دار قرطبة، 2004.

9- الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية. ط: 1. الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع، 2004.

11- علي القريشي-، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر.ط:1. الزهراء للإعلام العربي، 1989.

13- مالك بن نبي، تأملات. ط:2 . دمشق: دار الفكر، 1988.
14- مالك بن نبي، شروط النهضة. ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين، ط:4.
15- مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة. ط:3. دمشق: دار الفكر، 1988.
16- مالك بن نبي، فكرة كمنولث إسلامي. ترجمة الطيب الشريف. ط:2 . دمشق: دار الفكر، 2000.
17- مالك بن نبي، القضايا الكبرى. ط:1. دمشق: دار الفكر، 1991.
18- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو. ط:1. دمشق: دار الفكر، 1988.
19- مالك بن نبي، مشكلة الثقافة. ط:4. دمشق: دار الفكر،1984.
20- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع. - شبكة العلاقات الاجتماعية. ترجمة عبد الصبور شاهين. دمشق: دار الفكر، 2002.
21- مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي. ترجمة عبد الصبور شاهين. ط:5. الجزائر: دار الفكر، 1986.

22- محمد أحمد كريم وسيف الإسلام علي مطر، التربية ومشكلات المجتمع. مصر: شركة الجمهورية الحديثة لتحويل وطباعة الورق، 2002.
23- محمد بغداد باي، التربية والحضارة، بحث في مفهوم التربية وطبيعة علاقتها بالحضارة في تصور مالك بن نبي. عالم الأفكار ، 2006.
26- نورة خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، ط:1. الدار السعودية للنشر والتوزيع، 1997.

الدوريات:

28- نور الدين بوكروح "مالك بن نبي صاحب تيار تنويري يدخل العالم الإسلامي في القرن 21"، جريدة "الشروق العربي"، العدد15، بتاريخ: من 04 إلى 11 نوفمبر 1993. ص5. نقلا عن محمد بغداد باي، التربية والحضارة.